

والجمال ، لا يعدو أن يكون تمثلاً مرحلياً يرقى بها درجة إلى حيث يبدو لها أفق أوسع ، فتستجلى من رحاب الحياة والكون ما لم يكن يبدو لها في مرحلة مضت .

والأصلُ أن تخطو البشرية دائماً على مراقي تدرجها ، فيساير هذا التدرجَ تطوراً في إدراكها وغاياتها ومثلها ، ومن هنا كان تطور الفن سنة الحياة وقانونها الطبيعي . ولكن الذى يحدث أحياناً أن تقوم معوقات في سبيل التطور ، تحاول أن ترده عن مسعاه أو تضلله عن مساره الصحيح ، فتتعطل حركته ريثما تسترد الحياة من قوى الصحة والوعى ، ما تقاوم به عوادي المرض وتمزق حجب الغفلة وغواشى التضليل . ومن ثم تستأنف السير والعروج ، بعد أن تكون قد خسرت كثيراً وتكبدت تضحيات جسيمة .

ومع إيماننا الراسخ بأن الوقوف في وجه التطور تأباه طبيعة الوجود ، وأن كل محاولة لتجميد حركة الكائن الحى ، مادياً كان أو معنوياً ، لابد أن تنسخها آية الحياة . . .

فالذى لاشك فيه أن مثل تلك المحاولة ، على عقمها ، تعوق خطانا وتبدد طاقاتٍ ليس من حق جيلنا أن يضيعها على الأمة عبثاً .

* * *

ووعى التطور هو الذى يمنح الصفوة من أدباء القمة ، فرصتهم لارتداد آفاق من الفن والحياة لم يستشرف لها قديمنا ، فتكون القيادة الأدبية اتجاهاً إلى شوطٍ يبدأ من حيث انتهى شوط سابق ، لأن تسير بنا حيث سار رؤادُ مرحلةٍ ماضية ، أتموا رسالتهم في كشف أسرارها واستيعاب أبعادها ودفع خطاها إلى الأفق الذى طمح إليه زمانهم .

وما تخلف أدبنا في عصور انحطاطه ، إلا لأنه وقف يجتر قديمه ويحاول أن ينسج على منواله . ويرى فيه غاية المسعى وقمة الطموح وذروة الكمال . ذلك حين كان مجد الأديب يقاس بمقدار ما يبلغه من شوط أتمه فحول الماضين ، وحين كان مطمح أمانيه أن يقال إنه متنبئ زمانه أو جاحظه أو أبو نواسه أو أبو تلمه أو وليده البحترى . . .